

## الفصل الرابع

### سيادة آشور

عندما وصل تغلات بيلاسر الثالث إلى العرش كانت آشور في وضع عسكري واقتصادي صعب يدعو إلى اليأس. فلقد كانت آشور فعلاً في حالة من الفوضى وغياب الدولة، وأصبحت المناطق الجبلية إلى الشرق والشمال من آشور تحت قبضة أورارتو، ولكن الأربعين عاماً التالية شهدت نهوض آشور واستعادة سلطانها على جميع أراضيها القديمة وأعادت لنفسها تلك المكانة القديمة كأقوى دولة في الشرق الأدنى، ولم تكن هذه التغيرات الجوهرية ناتجة عن أي تحسّن جذري في الأحوال الخارجية. وذلك لأن الضغط من الشمال قد اشتدّ خلال تلك الفترة، ولكن ذلك التحسّن كان بفضل الإصلاحات الإدارية التي قام بها تغلات بيلاسر من إعادة تنظيم إدارة حكومته المدنية، وحكومات الولايات. وقد أصبحت حجوم تلك الولايات أقل مساحة وقد خدم هذا في ظهور دوائر فعّالة مما منع حصول بعض حكام الولايات على مستوى خطر من القوة. وقد قُسمت تلك الولايات بدورها إلى أقسام ثانوية يحكمها موظفون صغار كانوا مسؤولين مباشرة من الوالي الأصلي، ولكن كان باستطاعتهم تقديم الشكاوى إلى الملك نفسه، ولقد كانت هذه الطريقة فعّالة ومفيدة لتأمين سلطة الدولة ومنع التجاوزات من قبل الولاة والحكام. ولقد نُظِمَ نظام بريدي (اقتبس عنه النظام الفارسي) وكان هذا النظام البريدي عاماً خلال الإمبراطورية مما ساعد على سرعة تحرك المراسلين والمراسلات ما بين الملك وولاياته، الذين كان يُطلب منهم تقديم تقارير حول أحوال ولاياتهم. وأمّا بالنسبة للدويلات الحاضرة الواقعة إلى ما وراء الولايات الآشورية فقد استخدم تغلات بيلاسر وخلفاؤه نظام تعيين ممثل للدولة لمراقبة مصالح آشور في بلاط الدويلات، بحيث تتم سيطرة آشور بصفة غير مباشرة من خلال العائلات المالكة المحلية. وإن هذه

العائلات الملكية المحلية كانت مطمئنة على حصولها على دعم السلطة الإمبراطورية في حالة حدوث أية ثورات داخلية أو اعتداءات الأعداء شريطة أن تدفع تلك الولايات الجزية وأن تتقبل توجيهات القائم بالأعمال الآشوري بالنسبة للقضايا والسياسة الخارجية والتجارية.

كانت أولى اهتمامات تغلات بيلاسر العسكرية هي تسوية شؤون الحدود الجنوبية، حيث كانت القبائل الآرامية بمحاذاة نهر دجلة تعبثُ فساداً وتسبب المتاعب منذ السنوات الأولى لحكم آشور - دان الثالث (٧٧١-٧٥٤ ق.م) فقد هزم البلاد التابعة لقبائل في بوكودو Puqudu إلى الشرق والشمال من بغداد الحديثة. وقد أعاد سكان شعب ارباخا التي أصبحت الآن المفتاح الأساسي لسيطرة آشور على بابل. وأما المناطق القبلية الواقعة في الجنوب الشرقي ما بين مدينة بابل وغيلام التي أصبحت ولاية منفصلة تحت الحكم الآشوري، وقد عزز هذا العمل مركز الملك الوطني في بابل وهو نابوناصر Nabu Nasir في حين أن تغلات بيلاسر لم يتدخل في شؤون هذا الملك... وقد حافظ نابوناصر على حالة السلم واتباع سياسة موالية لآشور في بابل حتى موته عام ٧٣٤ ق.م. وهكذا فقد تخلّص تغلات بيلاسر من الاضطرابات في الجنوب واستطاع الالتفات إلى الخصم الرئيسي لآشور وهي أورارتو. ويمكننا جمع شتات الحوادث التي تلت من معرفة نُف الحوليات التي خلفها تغلات بيلاسر بينما يمكننا الحصول على التفاصيل من المراسلات التي تمت ما بين الملك وقوّاده العسكريين، أو موظفي المخابرات على حدود أورارتو، ولم تكن نتائج ومسيرات الأحوال مؤكدة نظراً للصعوبات الناتجة عن التشويش الناتج من نُف الحوليات الموجودة.

لقد بدأ الضغط المعاكس على أورارتو عند حدوث الحملة التي جرّت ضد أراضي نامري Namri وهي المنطقة الواقعة إلى شمال زاموا Zamua (لواء السليمانية الحديثة) نفسها إلى الشمال من غيلام القديمة. ولم يقابل الجيش الآشوري أية جيوش أورارتية (وهذا يدل أن نظام التجسس والمخابرات لدى أورارتو كان دون مثيله في آشور) وبذلك استطاع القضاء على المعارضة تدريجياً والتي

أظهرها الزعماء الوطنيون المحليون. ولقد تُرك الحكام المحليون الذين عقدوا معاهدات سلام مع تغلات بيلاسر، تركوا كحكام موالين خاضعين لدفع الجزية، بينما تركت المناطق الأخرى تحت الحكم المباشر للولاة الآشوريين وأعيد إسكانها بنقل رجال القبائل من المناطق الواقعة إلى الشرق من بابل، ومع ذلك فقد أزعجت تلك الغزوة ساردور Sardur ملك أورارتو الذي سارع لتنظيم حلف معادٍ لآشور في الغرب ولقد أثبت نظام المخابرات والمواصلات الآشوري أنه أكثر فعالية من الأنظمة الأورارتية وقد أصبح جيش تغلات بيلاسر الآن مزوداً ومكتفياً نظراً لزيادة أعداد الخيول والبغال والجمال والمواشي التي حصل عليها بعد حملته على نامري Namri التي حصل من خلالها على حوالي خمسة عشر طناً من النحاس، وهكذا فقد زحف لمقابلة الجيوش المعادية في الغرب. ولقد ظهر أن الجيش الآشوري قد أوقع جيش التحالف في كمين سبب انهزام جيش التحالف بشكل مأساوي فقد أخذت أعداد واسعة من الأسرى. وطبقاً لما ذكرته الحوليات، بلغ عددهم حوالي ثلاثة وسبعين ألفاً، بينما هرب ساردور من معسكره ليلاً تاركاً خلفه جميع ممتلكاته وحتى مجوهراته وختمه الشخصي وقد دُبر أمر هروبه وعبوره منطقة أعالي الفرات راجعاً إلى بلاده.

ولقد سارعت تلك الدويلات التي لم تدخل التحالف إلى دفع الجزية لتغلات بيلاسر ولقد قضى هذا السنة التالية في تعزيز وضع الآشوريين في الغرب، حيث حصلت تغيرات واسعة إدارية ولقد حُوِّلت بعض الممالك التي كانت موالية لآشور، ولكنها برهنت أنها ليست أهلاً للثقة ولا يُعتمد عليها، فقد حُوِّلت هذه إلى ولايات آشورية تحت الحكم المباشر، ولكن بقيت بعض المناطق المنعزلة المضطربة. وخلال السنوات الثلاث التالية أُشير إلى عدد من الأنشطة المعادية لآشور في سوريا في الحوليات والمراسلات الملكية. وقد تدرجت هذه الأنشطة ابتداءً من أعمال عسكرية صغيرة إلى اضطرابات محلية موجهة ضد الإجراءات الاقتصادية التي لم يرض بها الشعب. ولقد أرسلت رسالة من أحد الموظفين الآشوريين يصف فيها الأحوال في الموانئ التجارية في صور وصيدا وهي تقدم لنا وصفاً عن الأحوال في تلك المنطقة.

فقد كانت السلطات الآشورية قد فرضت ضريبة على الأخشاب التي كانت تجلب من لبنان ولكن المواطنين الغاضبين قد تمردوا وقتلوا جابي الضرائب الآشوري. ولهذا فقد سارع الحاكم العسكري الآشوري إلى الانتقام والعمل بنشاط فَجَلَبَ إلى المدن الثائرة فرحاً من جيوش إيتوا Itu'a الآشورية وهم جيش قبلي خشن استعمل لاستلام الواجبات البوليسية فيما بين السكان المدنيين المشاغبين. ويخبر كاتب هذه القصة الملك أن وجود تلك القوات أوقع الذعر في قلوب السكان. وعندما اكتفى تجار الخشب بما حصل من مظاهره للجيش الآشوري أمرهم الحاكم الآشوري أن يستمروا في قطع الأشجار كما في السابق، ولكنه وضع حظراً على تصدير الأخشاب إلى مصر والمدن الفلسطينية. ولقد اتهم ملكي يهوذا والعبرانيين بالاشتراك بالاضطرابات التي جرت في ذلك الوقت وفرض عليهما تغلات بيلاسر الثالث دفع ألف مثقال من الفضة.

ويظهر أنه وفي السنوات التالية بقي تغلات بيلاسر الثالث في سوريا التي جعلها قاعدة لأنشطته بينما انشغلت وحدات من جيشه بالعمل في الشمال والشمال الشرقي لمتابعة النصر الآشوري الذي أحرزه ضد ساردور. ولقد أعاد فتح أراضي نايري Nairi الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة (فان Van) والأجزاء العليا من نهر الزاب الأعلى ولقد خضعت هذه المناطق في هذه المرة لسياسة التهجير للسكان الوطنيين وإعادة إعمار البلاد بجلب الأسرى من الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية. ولقد وضعت المنطقة بأكملها تحت الحكم المباشر للولاة الآشوريين.

إن انسحاب جزء من الجيش الآشوري ربما قد أعطى للحكام الصغار في سورية وفلسطين فكرة خاطئة حول قوة آشور بينما الإجراءات الاقتصادية من النوع الذي وصف في إجراءات الحظر التجاري على تصدير الخشب من لبنان، ربما خَلَقَ هذا الحظر بعض الصعوبات. ففي عام ٧٣٤ ق.م حدثت بعض الاضطرابات في جنوبي فلسطين، حيث هاجم الاتحاد المؤلف من ايدوم Edom والفلسطينيين مملكة يهوذا التي كانت تحت حكم آحاز Ahaz، بينما وفي أقصى الشمال تشكل اتحاد معادٍ لآشور ما بين سوريا والعبرانيين، وطبقاً لرواية العهد القديم، اتبع

آحاز سياسة موالية لآشور وطلب من تغلات بيلاسر العون قلباً تغلات بيلاسر على معارضة المدن الفلسطينية وسوريا وتدخل لدى العبرانيين لتستبدل بيكاح بيوشع. ويشكو كتاب التواريخ في التوراة ويقولون إن آحاز كان مضطراً لأن يُقدّم دفعه من المال إلى تغلات بيلاسر رغم ولائه وقد أكدت الحوليات هذا القول، ويبدو أنه من المحتمل فيما لو كانت قصة العهد القديم صحيحة ومن الممكن الاعتماد عليها أن الدفعة المطلوبة لم تكن سوى ما كان معروفاً بالكيترو Kitru أي الدفع للقوة العسكرية لقاء المساعدة التي تقدمها لأحد الموالين لها في حالة حاجته للمساعدة.

ولكن ما لبث أن عمت الاضطرابات في منطقة جديدة عام ٧٣٤ ق.م عند وفاة ملك بابل الموالي لآشور وهو نابو ناصر، فقد كانت القبائل الكلدانية مهيمنة على السيطرة على جميع الأراضي البحرية Sea Lands (وهي أقصى أجزاء بابل الجنوبية) لمدة حوالي قرن من الزمن وكانوا يوسعون سلطتهم بالتدريج إلى أعالي دجلة والفرات. وفي عهد الفوضى التي سادت لدى وفاة نابو - ناصر قام أوكنزير Ukinzer وهو زعيم قبيلة الكلدانيين والتي تدعى بين اموكاني Bit-Amukkani بتمرد ضد الوريث الشرعي الموالي لآشور وهو نابو - نادين - زير (٧٣٤-٧٣٢ ق.م) وتمكن أخيراً من الاستيلاء على العرش ولكن القبائل غير الكلدانية إلى الشرق من دجلة شمال بلاد بابل بقيت موالية لآشور وكذلك بشكل عام المواطنون الآشوريون وذلك على الرغم من استيلاء هذا المقتصب على العاصمة. وهناك بعض الدلالات على أن الدبلوماسية الآشورية قد نجحت في بذور الكراهية ما بين شيوخ القبائل الكلدانية وذلك بإبقاء بعض قواهم على الحياد بما فيه أولئك التابعين لمردوخ - أبيل - إيدينا Marduk-Apil-Iddina وكان هذا زعيماً طموحاً قادراً قام بتزعّم عصيان بنفسه فيما بعد والذي ذكر اسمه في العهد القديم تحت اسم ميروداش بالادان. وبالنسبة لمعالجة أمور أوكين - زير ثبت أن استراتيجية تغلات بيلاسر أعطت أكلها فقد توجهت الحملة من ولاية أرابجا ومرّ الجيش الآشوري خلال مجموعة من المدن عند عنق الزجاجة المشكل من تقارب التقاء دجلة والفرات، ودخل بابل عبر نهر دجلة من نقطة في أقصى الجنوب. ولقد

وضعت القوات الموالية لحراسة الطرق بينما تحرك الجيش غرباً لمهاجمة المدن البابلية. وهكذا فقد تحررت بابل من المتمردين الذين هربوا إلى سابيا Sapia وهي المدينة الرئيسية لدى قبيلة أموكاني Amukkani لتقمعه في منطقة المستنقعات على الفرات السفلي، ولقد طارد جيش آشوري أوكين - زير وحاصره في مدينته وسبب الخراب في أراضي بيت أموكاني وبقية القبائل الكلدانية المتمردة، وهي بيت شيلاني وبيت سعلاي، أمّا ميروداش بالادان والشيخ الآخر اللذان عقدا اتفاقات صداقة مع آشور فقد أُعفيّا من العقاب. ولقد استغرق هذا الأمر حوالي ثلاث سنوات وهكذا فقد أصبحت بابل تحت حكم ولاية آشوريين وقام تغلات بيلاسر في عام ٧٢٩ ق.م فقد صافح إله بابل في الاحتفال بالسنة الجديدة وهذا يعني أنه قد مُنح صلاحيات الإله مردوخ بالنسبة للملكية في بابل لأول مرة، إذ إنه قد مرّت أكثر من أربعمائة وخمسين عاماً لم يتولّ فيها أي ملك آشوري حكم بابل. وقد توفى تغلات بيلاسر عام ٧٢٧ ق.م وترك آشور مهيمنة على إمبراطورية ممتدة من الخليج العربي إلى حدود مصر وتشمل جزءاً لا بأس به من بلاد الأناضول وكنيكيا.

لقد اعتبرت العمليات الآشورية العسكرية الممتدة جنوباً حتى غزة بالإضافة إلى تعطيل التجارة المصرية بسبب الحظر الذي فرضته آشور على تصدير الأخشاب إلى مصر من لبنان، لقد اعتبرت كل هذه الأعمال تهديداً لمصر. وفي زمن شلمناصر الخامس القصير الأمد وهو خليفة تغلات بيلاسر عمه المصريون إلى القيام بمحاولة لقلب الدويلات الصغيرة في فلسطين وجنوب سوريا. ولقد تورط هوشيا ملك العبرانيين أيضاً بحيث سبب لنفسه هجوماً قام به شلمناصر. وقد تبع ذلك الاستيلاء على السامرة العاصمة العبرانية بعد حصار دام ثلاث سنوات من الزمن وتبع ذلك تنفيذ السياسة المعتادة وهي عمليات التهجير فقد نقلت القبائل العبرانية العشرة إلى مقاطعة غوزانو Guzanu وإلى المنطقة الواقعة جنوب شرق بحيرة أورميا.

لقد كان الاستيلاء على السامرة الذي كان يُعزى في التوراة إلى شلمناصر إنما اتهمه خليفته سيرجون. ومن المحتمل أن سرجون كان هو القائد الذي أشرف على العمليات بالنيابة عن شلمناصر. لقد تميّزت بداية حكم سرجون ٧٢١-٧٠٥ ق.م

بحدوث اضطرابات جديدة في بابل. وهناك فقد عمل أحد شيوخ قبيلة بيت ياكين Bit-Yakin وهو ميروداش بالادان وهو دبلوماسي لامع على وضع نفسه في مركز قوي فقد نصب نفسه رئيس شيوخ الكلدانيين وقد أمّن دعم القبائل الآرامية في بابل ورتّب تحالفاً مع عيلام وهي المنافس القديم لبابل في جنوب إيران. وبعد صعود سرجون إلى العرش سرعان ما دخل ميروداش بالادان بابل وادّعى أحقيته بملك تلك البلاد. وذلك بمصافحة الإله بعل في عيد رأس السنة عام ٧٢١ ق.م ولقد حاول الجيش الآشوري تكرار المناورة شرقي نهر دجلة التي هُزم فيها أوكن - زير. ولكن في هذه المناسبة لقد واجهه الجيش العيلامي في (الدير Der) وتلا ذلك وقوع مواجهة لم يستطع بها الجيش الآشوري. ومع أنه لم يُهزم أن يعبر إلى مدينة بابل واضطر أن يرجع إلى آشور. ونظراً لانشغال سرجون في قضايا أخرى فقد اضطر أن يترك ميروداش بالادان دون أي تدخل لمدة عشر سنوات وفي أثناء هذا الوقت تكبدت المدن الكبرى في بابل أضراراً فادحة فقد كان رجال القبائل يتدخلون بتدفق التجارة بحرية ويسببون الازعاجات في المدن. أما سيطرة الكلدانيين فقد كانت مرفوضة شعبياً بالنسبة للمدن العظمى في بابل. وخلال السنوات القليلة قبل سقوط آشور نفسها ظلت هذه المدن تناشد الملك الآشوري المساعدة ضد الخراب والدمار الذي كانت تُسببه القبائل الكلدانية.

إن السبب الرئيسي الذي أجبر سرجون على ترك مشاكل بابل دون حل، هو نشوب التمردات في سوريا. وقد كان هذا الحدث مناسباً بالنسبة لميروداش بالادان، ولكن لا يمكننا إثبات أنه كان وراء هذه التمردات ولقد تزعم هذا العصيان مدينة حماة وهي الإدارة السورية الوحيدة المستقلة. ولقد واجه سرجون وهزم هؤلاء العصاة في كركر عام ٧٢١ ق.م وحول حماة نتيجة لذلك إلى ولاية آشورية. ولقد أشار رجل السياسة والنبي أشعيا إلى الدرس الذي ينبغي لنا أن نتعلمه من تلك الحوادث معتبراً أن آشور هي الأداة التي يستخدمها الإله للانتقام ويقول:

«أنت يا آشور العصا التي تتبني عن غضبي، أنت المنفذة لغضبي سوف أرسل ضدها أمة نجسة قذرة وسوف أوكّل آشور بالعمل ضد الشعوب التي نزل عليها

غضبي وأن نأخذ الغنائم والفرائس وأن تدوس آشور أعدائي وكأنهم الوحول الموجودة في الشوارع».

ولقد طال غزة شيء من غضب آشور وقد كانت مصر تدعم غزة عن طريق أحد قوادها وهو الذي يطلق عليه اسم (سو So) في العهد القديم ولكن عند حدوث المواجهة في رابيهو Rapiho عمد القائد المصري إلى الهرب بشكل مُخزٍ تاركاً ملك غزة معرّضاً للأسر والعذاب وربما الموت. هذا وقد علّق راب - شيخ Rab-Shakeh على قيمة التحالف مع مصر بقوله :

«إنك قد وثقتَ بهذه العصا المصنوعة من القصب الهش وحتى على مصر، فإذا أتكأ عليها أي إنسان، فإنها سوف تنهار وتتكسر في يده وتجرحها وهكذا حال من يعتمد على ملك مصر».

وعدا عن تلك المحاولة التي قد أجهضت والتي قامت بها مدنية أشدود الواقعة على سواحل فلسطين الجنوبية وذلك لتتظلم حلف مقاوم لآشور تدعمه مصر عام ٧١٢ ق.م وبمساعدة مملكة يهوذا وصيدوم ومواب، لذلك لم يصادف سرجون أي متاعب من فلسطين. ويشير أشعيا إلى الاستيلاء على أشدود على يد القائد الآشوري وينصح أهالي أورشليم بعدم الاعتماد على الدعم العسكري لمصر ضد آشور.

وكما كان الحال بالنسبة إلى تغلات بيلاسر، فقد كانت المشكلة الرئيسية لسرجون هي الضغط الذي بدأ من الشمال. أما مملكة أورارتو التي عرفت تواريخ ثقافتها نتيجة للحفريات التي قام بها الأتراك والروس والتي برهنت أن أورارتو كانت واحدة من القوى العظمى في الشرق الأدنى القديم، فقد كانت هي نفسها تحت ضغط شديد من قبل القبائل الإيرانية المهاجرة والتي كانت تتحرك شمالاً وغرباً ابتداءً من سهوب روسيا. ولقد استقرت إحدى كتل هؤلاء المهاجرين أثناء حكم سرجون وشكلت مملكة ذات بعض الأهمية تدعى مملكة زيكييرتو Zikirtu إلى الشرق من بحيرة أورميا وكان الجزء الأكبر من هذه الكتلة هم الميديون الذين كانوا منظمين تنظيمياً رخواً حسب الأنظمة القبلية يحكمهم بعض الزعماء بشكل

شبه مستقل. ولقد حاول روساس الأول (723-714 ق.م). وهو الابن النشط والوريث للملك ساردور الذي قهره تغلات بيلاسر، حاول هذا بمساعدة حظ وافر من النجاح أن يتفق مع ثلاثة من الزعماء الميديين وأمن دعمهم له ضد آشور وكذلك تعاونهم في إبقاء الطرق التجارية مفتوحة من الشرق وهذه كانت قضية أساسية بالنسبة لازدهار أورارتو. وفي حوالي هذه الفترة كانت الطريق الرئيسية من بلاد فارس تمر بالشاطئ الغربي لبحيرة أورميا إلى الشرق من بحيرة فان وحتى أرزروم (حيث وجدت أشياء برونزية تعود إلى القرن الثامن ق.م) وتستمر الطرق التجارية إلى تريبيزوند Trebizond على البحر الأسود. ولقد كانت أورارتو حقاً تتمتع وتجنّي فوائد التجارة مع بلاد فارس وربما مع الهند. ولقد دلّ على هذا وطبقاً لأقوال بعض الثقافات تلك الأشياء التي ذكرت عندما نهبت آشور بعض المدن الأورارتية عام 714 ق.م. وهناك إمكانية أن تكون لأورارتو حملات تجارية مع بعض البلدان فيما وراء بلاد اليونان نظراً لأنه قد وجدت بعض الأدوات البرونزية في بعض القبور الأتروسكية (في إيطاليا) ويضيف بعض العلماء أن القوافل المحملة بالحرير قد وصلت إلى أورارتو من بلاد الصين وأن التجارة التي كانت تتبع الطريق الشمالية من خلال أرزروم Erzerum وتريبيزوند Trebizond كانت تمر في آشور في الماضي ثم إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط. وكانت الرغبة في قطع الطرق التجارية الأورارتية وتحويل مجراها وإرجاع الازدهار في آشور إلى سابق عهده، هي من الأسباب التي حملت سرجون على تتابع غزواته في المنطقة. وإلى الجنوب من بحيرة (أورميا) وما بين الأراضي الآشورية وأراضي الميديين الجبارين كانت تقع أراضي المانايين Mannaeans وهم من الشعوب التابعة لآشور والتي كانت تدفع بها الجزية. وبعد اعتلاء الملك سرجون على العرش بمدة قصيرة ظهرت الاضطرابات في الجزء الشرقي من هذه المنطقة والتي أثارها ملك زيكيرتو Zikirtu الذي كان يدعمه بدوره روساس. ولقد عالج سرجون هؤلاء المتمردين ولكن عادت الاضطرابات بعد سنتين عندما تورط روساس في أعمال عسكرية عنيفة صريحة. ولكن سرجون عاد وانتقم بضراوة وبعد أن تخلّص من المتمردين عين الوسونا Allusunu ملكاً على المانين، وبعد سنتين هوجم ألسونا من خلال بعض

الدساتيس الداخلية والأحوال الخارجية، وذلك على يد أورارتو ولكن للمرة الثانية برهن سرجون أنه النَّد الملائم للوضع فقدَّم لألوسونا كل المساعدات اللازمة وقام بغارة تأديبية على الحدود الجنوبية لأورارتو، وبالإضافة لهذه التدخلات المتكررة من قِبَل أورارتو في شؤون الأشخاص الموالين لآشور، كان هناك وخزات متطرفة بشكل صدمات حدودية. ولمعالجة هذا الوضع وضعت خطط لغزوة على مقياس واسع لأورارتو ولقد وصلت إلى آشور تقارير من موظفين من المخابرات الآشورية ومن الجواسيس الأجانب، ولقد اقترح أحدهم أن يقوم الملك بهجوم مباشر على أورارتو وكان واثقاً أن العاصمة توروشبا سوف تسقط بيد الآشوريين، وقد ذكرت رسالة أخرى أنه قد حدثت بعض الاضطرابات داخل أورارتو وأن القبائل المجاورة سوف تناصر آشور في حالة غزوها لأورارتو، وقد توقع الجميع حدوث غزوة.

وفي صيف عام ٧١٤ ق.م قامت قوات آشور بعمل مظاهرة خطَّط لها ضد أورارتو ولقد عرفت الحوادث بالتفصيل من تقرير مشهور بالنسبة للقضية وكان بشكل رسالة إلى الإله آشور. ولقد نقل سرجون جيشه إلى مقاطعة زاموا وهي من أراضي الحكام الموالين لآشور، وبعد ذلك قاد آشور سرجون جيشه شرقاً إلى أراضي زيكرتو حيث استولى على المدن المحصنة وابادها. ثم توجه غرباً مرة ثانية، حيث علم أن القسم الرئيسي من جيش أورارتو وحلفائهم كانوا يدافعون عن ممر ضيق في الجبال: وفي هذه النقطة وكما حدث مع الاسكندر الأكبر عند هجومه على الهند فقد ظهر أن جيش سرجون الذي تعب وقاسى من تلك الحملات التي جَرَّت في أراضٍ صعبة، قد أصبح قاب قوسين من التمرُّد ولهذا فقد قام سرجون لوحده مع حرسه الشخصي بالهجوم على جناح القوات المعادية ونجح في تشتيت شملها. وعند ذلك تشجع الجيش الآشوري ودَبَّ الحماس في قلوبهم فهاجموا الجيش الأورارتي مع التحالف واخترقوا صفوفهم وسببوا الذعر في نفوسهم. ولهذا فقد عمد القائد الأورارتي للانسحاب وقاد جيشه في تراجع سريع ولكنه منتظم ولكن الوحدات الأخرى من الجيش التي أصبحت دون قيادة هربت بشكل فوضوي فوق الجبال، حيث هلك عدد كبير منهم بسبب أحوال الطقس القاسية. ولقد كان انكسار

وهرب الجيش الأورارتي قد شكّل صدمة لمعنويات الأورارتيين فاستطاع سرجون أن يخرق دون مقاومة قسماً عميقاً من الأراضي الأورارتيّة، وهكذا فقد غادر روساس عاصمته توروشبا Turushpa (التي لم يجرؤ سرجون على مهاجمتها) والتجأ إلى الجبال، حيث مات حزناً وكمداً طبقاً لما ذكره سرجون:

«لقد انطرح في الفراش كالنساء في حالة الولادة ورفض أن يمس فمه الطعام أو الشراب وهكذا فقد أوقع نفسه في مرض لا دواء له».

وبعد أن انهارت الإدارة الأورارتيّة المركزية أصبح سرجون قادراً على الزحف إلى شمال بحيرة فان وانشغل بالنهب والسلب والخراب دون مقاومة تذكر. وفي أثناء مرحلة العودة من الشمال وجد سرجون أن أحد الحكام المنفردين وهو اورزانو Urzanu حاكم مدينة موزازير رفض الاعتراف بسرجون سيّداً له، وهكذا ورغم أن تلك المدينة كانت بعيدة وصعبة المنال من خلال الغابات والجبال، وجد سرجون أنه من الضروري أن يعطي درساً لموزازير Musasir مع أنها كانت مقدسة. فعمد سرجون إلى ترك جيشه في مسيرة العودة إلى آشور فقاد فصيلاً من جيشه يتألف من ألف فارس وهاجم المدينة وأعلن لدى جيشه أن هرب أمير موزازير يجب أن يمنع وكان سبب هذه الأوامر وحتى ضرورة ملاحقة أمير موزازير نفسه أصبحت واضحة للسبب التالي: لقد كانت المدينة مركزاً من المراكز الدينيّة الطقوسية لهالدي Haldi وهو إله أورارتو الوطني. ولقد وصل سرجون إلى المدينة ليجد أن هناك عيداً للتتويج يجري على قدم وساق وكان الإله هالدي Haldi يعيّن خليفة (وربما كان هذا الخليفة أمير موزازير Musasir نفسه) للمنصب الشاغر وهو ملك أورارتو ولهذا فقد قام سرجون بأسر الإله نفسه ومرافقيه وهجر أهالي المدينة ونقل كنزاً ثميناً من المعادن الثمينة والأدوات البرونزية إلى آشور.

ومع أن سرجون لم يأخذ العاصمة الأورارتيّة، ومع أن إحدى النقوش الأورارتيّة قد ذكرت جانباً آخر من الصورة، فإن روساس (قبل أن يصاب بالمرض العضال الذي ذكره سرجون) قام بهجوم معاكس ناجح لاستعادة موزازير، ومع ذلك فقد

كانت حملة سرجون ذات أثر كبير، بحيث أنه لم تحدث أية اضطرابات ناتجة عن أورارتو خلال العشرين عاماً التالية أو أكثر.

لقد أصبح سرجون الآن حراً لمعالجة شؤون بابل. فلقد مضى عليها حوالي عشرة أعوام من الحكم القبلي وخراب التجارة مما شجع سكان المدن الكبرى على قبول أي تدخل آشوري. بينما خدمت الأحوال الداخلية في عيلام على شل حركة الملك العيلامي، بحيث لم يعد قادراً على التصرف، ولهذا فقد بدأ سرجون بتنفيذ الاستراتيجية المعتادة وهي الهجوم إلى أسفل حوض دجلة وهذا أجبر الجيش الكلداني على التقهقر بينما انتهزت المدن في بابل الشمالية الفرصة ففتحت أبوابها ورُحِّبَت بسرجون وهكذا فقد صافح سرجون الإله في عيد رأس السنة في بابل ولكنه اتخذ لنفسه لقب نائب الإله بدلاً من لقب ملك بابل. وهكذا فقد تم الاستيلاء على أراضي ميروداش - بالادان وتم الاستيلاء على قلعته، فما كان منه إلا أن قدم خضوعه وطاعته لسرجون الذي عينه زعيماً ورئيساً لقبيلة بيت ياكين.

وفي أثناء ذلك وصلت إلى سرجون تقارير استخباراتية تفيد أن خليفة روساس وهو أرجستس Argistis كان يخطط للقيام بهجوم على آشور مع أن الجيش الذي كان يجمعه ربما كان يريد به أشياء أخرى، وعلى أي حال وفي عام ٧٠٧ ق.م دخل قطيع كبير من البرابرة يدعون الجميريا Gimirraya أورارتو من الشمال وقهروا جيش أرجستس Argistis وأبطلوا محاولته لإيقافهم ومرّوا غرباً إلى كليشيا، وهنا وصلوا إلى أراضي خاضعة لآشور، ومن المناسب أن نلخص هنا مجرى الحوادث في هذه المنطقة خلال حكم سرجون:

في أوائل حكم سرجون تضاربت مصالح (الموشكو) (وهي دولة قوية في جنوب غربي آسيا الصغرى) مع مصالح آشور. ففي عام ٧١٨ ق.م بدا وأن موشكو كانت محرّضة لعصيان قامت به كركميش (التي أصبحت ولاية آشورية نتيجة لهذا العصيان). وفي عام ٧١٦ ق.م قام سرجون بعمل عسكري ضد موشكو بدعوى أنها قد قامت باعتهاء على بعض أراضي ولاية كوي Que. وبعد نجاح سرجون ضد أورارتو عمدت هذه لإقامة شبكة التحالفات في الغرب ونجحت في الاتفاق مع

موشكو وفي إحباط تحالف أحد الأمراء التابعين لسرجون. وقد استطاع سرجون معالجة شؤون هذا المتمرد ولكن استعداد موشكو لتقديم دعم معنوي لجميع الخارجين على حكم آشور بالإضافة إلى الضغط الحاصل من أورارتو، كل هذا أثبت أن هذه الأوضاع لا ينبغي أن تحدث خلال الدويلات التابعة لآشور، ففي عام ٧١٢ ق.م حدث تمرد آخر، وهكذا فقد وُضعت الدولة المتمردة تحت الحكم المباشر كولاية آشورية وقد خُضعت هذه الدولة بالإضافة إلى موشكو وتابال لتكون إسفينا طويلاً يفصل موشكو وأورارتو. وفي عام ٧٠٩ ق.م حصل هجوم على موشكو من قبل كوي Que وهكذا تغيرت السياسة الخارجية في موشكو فأصبحت موالية لآشور فأرسل ملكها ميتا Mita (وهو ميداس حسب الأساطير اليونانية) هديه وطلب إجراء معاهدة مع آشور ولقد ابتهج سرجون من هذا التغير وأرسل رسالة إلى مبعوثه الخاص المسؤول عن المفاوضات وربما كان هذا ابنه سنحاريب وطلب منه أن يبلغ (ميتا) عن خالص سروره منه.

هكذا كان الوضع عند ظهور موجة الجيميريا أو السيميريين Cimmerians (حسب اللفظة التقليدية) في الشمال الغربي بعد المحاولة الفاشلة التي قام بها أرجستس لإيقافهم وتشير الشواهد في علم الآثار إلى كالح Calah (التي كانت لا تزال مركزاً إدارياً هاماً مع أن سرجون وفي أثناء القسم الأخير من حكمه قد بنى عاصمة جديدة في أقصى الشمال (دور شاروكين Dur-Sharrukin) تشير الشواهد أن كالح قد شهدت مشهداً من مشاهد العنف والتخريب في زمن ما في العقد الأخير للقرن الثامن ق.م. ومن الممكن اعتبار هذا شاهداً (مع عدم وجود ما يدعم هذا الافتراض) على المفاجأة التي أحدثتها غارة السيميريين على واحدة أو أكثر من المدن الآشورية. لهذا فقد زحف سرجون متجهاً إلى تابال عام ٧٠٦ ق.م وقابل قطعان السيميريين في المعركة. وهناك شواهد مُبهمة أتت من بعض الرسائل تشير أن سرجون قد قُتل في المعركة ولكن ليس هناك ما يثبت هذا القول. ومهما كان أسلوب موت سرجون، إلا أنه توفي بالتأكيد عام ٧٠٥ ق.م وينفس الوقت تحركت القطعان البربرية بعيداً إلى داخل آسيا الصغرى.

لقد كان خليفة سرجون وهو ولده سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م) إدارياً مجرباً وجندياً شجاعاً عمل في الحدود الشمالية. وقد وصلت إلينا أعداد من التقارير تشير إلى إحداثة كثيراً من التطورات والتحسينات في تلك المنطقة. وهكذا فإن عدم قيام سنحاريب بأي عمل في الحدود الشمالية عند تسلّمه السلطة، ربما يُفسّر له ليس كفضل سنحاريب في فهم المشكلة بل كنتيجة لنجاح الوالد في معالجة هذه المشكلة.

لقد استفاد سنحاريب من الوضع العسكري الذي ورثه عن والده سرجون، فكان أول عمل وفضل عمل باقٍ له هو إعادة بناء وترميم مدينة نينوى القديمة واختيارها عاصمة، حيث ظلت كذلك حتى سقوط الإمبراطورية الآشورية، أما دورشاروكين (خورساباد الحديثة) التي كان سرجون قد خطط لجعلها عاصمة له وانتقل إليها في السنوات الأخيرة من حكمه، فلقد استخدمها سنحاريب كقلعة فحسب.

لقد انتهك السلم في الإمبراطورية بعد سنتين من حكم سنحاريب وذلك بسبب قيام بعض الاضطرابات في بابل. ونظراً لبعض الأسباب التي تعتبر خاضعة للتخمين، فقد ألغى سنحاريب عادة مصافحة يدي بعل في بابل بل ثبت ادعاءاته بحقه في الملكية. ووظيفة نائب الملك في بابل، أما (ميروداش بالادان) الذي بقي مخلصاً لملكية سرجون، فقد اعتبر الآن أن الفرصة قد أصبحت سانحة لعمل ادعاء جديد لأحقّيته في ملك بابل، وكان الكلدانيون والآراميون وراء هذه الفكرة. ولقد أكّدت له عيلام دعمها ولذلك فقد بدأ بعمل تحالف ضد آشور. وفي السنوات التي سبقت عصيان عام ٧٠٣ ق.م حدثت تلك السفارة ما بين ميروداش بالادان وحزقيا ملك العبرانيين.

وفي عيد رأس السنة لعام ٧٠٣ ق.م قامت آشور بوضع أحد أبناء بابل وهو من أتباعها ملكاً بصفة رسمية، وفي الحال تحرّك ميروداش بالادان على رأس جيش باتجاه العاصمة وعزل الملك الرسمي وبدأ في إعداد المنطقة الشمالية التي تشمل المدن البابلية الشمالية للحرب ضد آشور التي سوف تباشر بها آشور حتماً. ولقد

كانت تشكيلات ميروداش العسكرية تنحصر بالجنود العيلاميين، اختير قسم منها للتمركز في كوئاه Cuthah للوقوف أمام جيش سنحاريب وقد كان القسم الأكبر من هذه العساكر متمركزاً في كيش Kish. وهنا أرسل سنحاريب جماعة من الجنود ليقطع كيش عن كوئاه، بينما بادر الجيش الرئيسي إلى الاستيلاء على كوئاه بالقوة. وبعدها تقدم الجيش الآشوري الرئيسي وقابل الحلفاء في كيش وهزمهم وهكذا عادت جميع المدن وشمال بابل إلى السيطرة الآشورية ولقد استقبلت بابل سنحاريب كما فعلت عند مجيء والده بحفاوة وترحاب وحماس. وهكذا عادت الصداقة المتبادلة نظراً لأن عمليات النهب انحصرت بقصر ميروداش بالآدان الذي نهبه الآشوريون.

وبعدها تقدم الجيش الآشوري لإعادة احتلال وهدم الحصون في جميع المناطق الكلدانية، وعندها تركت المنطقة الكلدانية تحت حكم موظفين آشوريين، بينما وضعت منطقة بابل الشمالية تحت حكم ملك بابلي يدعى بيل - إيبني Bel-Ibni وهو أحد الأمراء الأجانب الكثيرين الذين عاشوا كرهائن في البلاد الملكي الآشوري وقد تربوا هناك انتظاراً لاستخدامهم في مثل هذه الأوضاع.

ولقد حدث عصيان في فلسطين ربما كان ميروداش - بالآدان يتمنى حصوله عند قيامه بالاضطرابات ضد آشور. وذلك في عام ٧٠١ ق.م. ولقد تورط حزقيا ملك يهوذا في هذا العصيان مع أن ذلك كان ضد نصائح أعظم رجل من مستشاريه وهو أشعيا. وقد كان حزقيا أقوى ملوك الدويلات في فلسطين في ذلك الزمن وقد أسس نوعاً من السيادة فوق المدن الفلسطينية ثم حاول التقرب من مصر مرة ثانية والتحالف معها. وهكذا هزم الحكام الفلسطينيين الموالين وكان أحدهم يدعى بادى ملك إيكرون وقد حُصر في أورشليم وبعد ذلك تقدم جيش آشوري قوي لاحتلال فلسطين وهزم العساكر المصريين في إيلتيكي Eltekeh واستولى على المدن المتمردة (عدا أورشليم) وكافأ الموالين له من الحكام الفلسطينيين بمنحهم أراضي كانت تخص مملكة يهوذا سابقاً ونظراً لأن الحوادث في بابل استدعت رجوع

سنحاريب باكراً، لذلك فلم يشدد سنحاريب حصاره لأورشليم وهكذا نجت مدينة (حزقيا) وذلك بإعلان خضوعه ودفعه تعويضاً ثقيلاً.

أما في بابل، فإنه لم يكد الجيش الآشوري الرئيسي ينسحب حتى عاد ميروداش - بالادان إلى قبيلته وبدأ من جديد مكائده مع العيلاميين والكلدانيين والقبائل الآرامية. أمّا بيل - إيبني فإنه كان مفتقراً إلى القدرة على السيطرة على القوات المسلحة، لذلك فلم يستطع أن يحافظ على كفاءة حكومته وفي عام ٧٠٠ ق.م أصبح من الواجب أن يقوم الجيش الآشوري بغزوة أخرى للأراضي الكلدانية وكذلك حملة تأديبية ضد العيلاميين. وهكذا عُزل بيل إيبني وعُيّن آشور - نادين - شوم Ashur-Nadin-Shum وهو أحد أبناء سنحاريب الصغار ملكاً بدلاً منه.

لقد حكم آشور - نادين - شوم في بابل مدة ستة سنوات. وقد مات ميرداداش بالادان بعد وقت قصير من اعتلائه العرش، ولكن بقيت عيلام تهديداً مستمراً لهدوء وسلام الأراضي البحرية وكانت تخدم كملجأ للجماعات الناقمة من قبائل بيت ياكين، ولمعالجة الإزعاج العيلامي الخطر قررت السلطات الآشورية أخيراً القيام بهجوم بحري مباشر على المنطقة العيلامية المذكورة. وكان سنحاريب قد أسكن الحرفيين السوريين في نينوى، حيث أمرهم ببناء أسطول من السفن التي أبحر بها فوق مياه نهر دجلة وجلب بحارة من صور وصيدا وقبرص. وانتقلوا بواسطة قناة تصل إلى نهر الفرات، وحوّلوا الفرات إلى رأس الخليج العربي وهكذا فقد نُقلت العساكر عن طريق القوارب إلى شاطئ عيلام، حيث أمّنوا لأنفسهم رأس جسر رغم مقاومة العيلاميين والكلدانيين، ومن هناك قاموا بغارة سببت تخريب ونهب المدن العيلامية في الجوار وأسرت ما بقي من قبائل بيت ياكين المزعجة.

إن الإدعاء في حويلات سنحاريب أنه قد صبّ في غارته الفرع في أراضي عيلام قد أعطى فكرة خاطئة كدّبته الحقائق، ولقد انتقمت عيلام بشدة. إذ بينما كانت جيوش سنحاريب لا تزال في الجنوب قامت عيلام بغزوه عبر نهر دجلة موجهة إلى بابل المدينة، حيث أسر الملك العيلامي آشور - نادين - شوم في سبيار ونصب ملكاً آخر لبابل مكانه، وهو أحد أبناء بابل واسمه نيرغال - آشوزيب. وفي أواسط

عام ٦٩٣ ق.م قامت العساكر الآشورية التي كانت عائدة بحذر من الجنوب، بالانتصار على نيرغال آشوزيب في نيبور ولكن لم يرد أي ذكر في الحوليات عن أية محاولة لمعالجة قضية بابل، حيث تقدم زعيم كلداني آخر اسمه موشيزيب - مردوخ Mushezib-Marduk ونصب نفسه ملكاً بعد أن نال دعم الآراميين وبعد مضي أكثر من موسمين على قيام تلك الحملات في الأراضي البحرية، أصبح مما لا شك فيه أن الجيوش الآشورية أصبحت بحاجة للرجوع إلى قواعدها لإعادة التنظيم والتموين، ولهذا لم تحدث إلا هجومات سريعة على بابل. وبدلاً من ذلك وبعد أن فهم واعترف سنحاريب أن عيلام قد أصبحت العامل الفاصل في السياسة البابلية، لذلك فقد تعهد سنحاريب بعمل إجراءات لتلافي هذا الخطر. وفي عام ٦٩٢ ق.م حدث هجوم آشوري ضد عيلام قادم من ولاية (دير) كانت نتيجته أن ألحقت بعض الأراضي العيلامية بالإمبراطورية الآشورية. ولقد منعت الأحوال المناخية آشور من التوغل في أراضي عيلام نفسها. أما في بابل فقد أعلن موشيزيب - مردوخ العصيان ورفض الاعتراف بسلطة الحاكم الآشوري. ولكن استطاعت السلطات الآشورية المحلية احتواء هذا العصيان. هذا وقد هرب موشيزيب - مردوخ إلى عيلام وعاد إلى بابل مصطحباً جيشاً وأعلن نفسه ملكاً على بابل متبعاً سياسة ميروداتش - بالادان فأرسل رشوة فجزية إلى عيلام من كنوز المعابد وطلب المساعدة العسكرية منها. ولذلك فقد جمع ملك عيلام جيشاً عظيماً من بلاده ومن المناطق الحاقدة والتي كانت تدور في فلك آشور، فانقلبت على آشور والتحقت بجيش الكلدانيين ولقد زحف هذا الجيش الكبير شمالاً إلى ولاية أرابخا وقابل الجيش الآشوري في هالولي Halule على نهر ديالاً وتفيد حوليات سنحاريب عن وقوع مذبحة تلت ذلك الهجوم وأن جيوش آشور كانت تغوص في بحر من الدماء. وامتلاً السهل بجثث القتلى الذين قطعتم أجسادهم طلباً للخواتم والأساور أو لمجرد حب في سفك الدماء. وكانت الخيول المذعورة تجر عربات الموتى.

ولكن الجيش الآشوري ومع أنه ادعى النصر، إلا أنه تعرض لخسائر فادحة ولم يستطع معها أن يستثمر انتصاره. ففي عام ٦٨٩ ق.م حدثت اضطرابات داخلية في

عيلام سببت انشغال البيت الحاكم، فاستطاع الآشوريون الذين كانوا قد عوّضوا عن خسائرتهم في معركة هالولي، استطاعوا معالجة شؤون موشيزيب - مردوخ أما القوى الكلدانية فقد تراجعت إلى بابل، حيث حوصروا لمدة تسعة أشهر وأخيراً استسلموا بعد أن أصابهم المرض والمجاعة، عندها دخل الجيش الآشوري إلى المدينة، وبدأ بالسلب والنهب عكس سياسته الماضية ولقد أُخِذَ تمثال الإله مردوخ إلى آشور كأسير وهكذا فقد اتخذ سنحاريب لقب ملك سومر وأكاد (جنوب وشمال بابل) وهكذا توقفت الاضطرابات في بابل مدة ثماني سنوات.

وبالنسبة لحدوده الشمالية فقد أصبح سنحاريب وليس لديه أي مشاكل مع أورارتو نظراً لأنشطة والده سابقاً وخبرته الجيدة في المنطقة والضربة التي تلقتها أورارتو من السيميريين. ولقد حدثت بعض الاضطرابات في منطقة كيو Que في المنطقة الشمالية الغربية عام ٦٩٦ ق.م ربما كانت مسببة عن وجود جيوب مقاومة للسيميريين الذين بقوا بعد أن كسر سرجون جيشهم الرئيسي، أما بالنسبة للحدود الشرقية فقد ضم سنحاريب بعض المناطق بعد الحملة ضد ميروداش - بالادان عام ٧٠٢-٧٠٣ ق.م وكانت هذه المناطق مستقلة سابقاً أو في حالة تبعية لآشور. وقد حصّن بعض المدن في المنطقة ضد أية هجومات عيلامية.

وبالنسبة للسياسة الداخلية فقد اشتهر سنحاريب بنشاطه المعماري وباهتمامه ببعض المشاكل التقنية. فهو الذي أعاد بناء نينوى، وأنشأ شوارع حديثة ووسّع السّاحات ووجّه مجاري المياه، وبنى مصدّات حجرية للطوفان لحماية قصره الجديد. وبنى حديقة كبيرة حول القصر وزرع فيها جميع نباتات الكلدانيين، وفيما وراء تلك الحدائق الجميلة كان هناك بساتين. ولكي يروي كل هذه المناطق الخضراء حُفرت قناة طولها ستة أميال، وبعدها وسّع سنحاريب حدائقه بزرعها بنباتات جلبها من سوريا وكذلك نبات المرّ وجمع أنواع الكرمة. وبعدها وسّع مصادر المياه وعن طريق السدود أنشأ مستنقعاتاً صناعياً ملاءم بالطيور المائية والخنازير البرية والغزلان وذلك تقليداً لما كان لدى بابل من النباتات والحيوانات. وقد وُجدت آثار لأعمال سنحاريب الهندسية وهي لا تزال ماثلة، فقد وُجد خندق لنقل المياه إلى بعض الوديان.

وكان طول هذا الخندق حوالي ثلاثمائة ياردة وعرضه أربع وعشرون ياردة. واحتوى على حوالي نصف مليون طن من الحجارة والصخور. ويصف سنحاريب أعماله هذه في نقوش وجُدت على الخندق تقول: «لقد حفرنا قناة تصل إلى المروج في نينوى وعملت جسراً من قطع الأحجار الكلسية فوق الوديان بحيث أصبحت المياه تمر فوق تلك الوديان، ولقد وضعت بعض المشاريع لإمداد مدينة أرابيلو (أربيل) بالمياه ولقد وقف سنحاريب اهتمامه بالقضايا التقنية وقال إنه اخترع تقنية جديدة في صناعة البرونز، فقال: «أنا سنحاريب ومن خلال ذلك الذكاء المتوقد الذي وهبني إياه الإله العظيم إيا Ea وبعد التجارب التي أجريتها والتي لم يسبقني إليها أحد، فقد بنيت قوالب من الصلصال تمثل اثني عشر أسداً هائلاً مع اثني عشر عجلًا هائلاً وصببت البرونز فيها».

وفي عام ٦٨١ تعرض سنحاريب لأحد تلك الحوادث الشائعة فيما بين الملوك الشرقيين وذلك لأنه قد اغتيل في بابل على أيدي أولاده. وطبقاً للرواية التوراتية فقد حدث هذا الاغتيال بعد رجوعه من حملة في فلسطين ولكن ليس هناك من تسجيل لهذه الحملة في المصادر الآشورية، وقد كان الخليفة الشرعي الذي عينه سنحاريب ووافق عليه الآلهة ونبل آشور هو أسرحدون ولقد اكتسب هذا الأمير خبرة مرموقة أثناء حياة والده نظراً لأن سنحاريب قد جعله مسؤولاً عن شؤون بابل بعد نهبها عام ٦٨٩ ق.م. وقد ساعدته خبرته هذه. فقد توقف قليلاً للحصول على موافقة الآلهة وبعدها ودون التوقف لإعداد جيشه وتموينه بادر بالمعركة السريعة للقضاء على قتلة والده من الجهة الغربية. ولقد استعد قتلة والده لمقاومة أسرحدون في منطقة نصيبين ولكن ولدى وصوله نشب الخلاف بين قوادهم، وذلك لأن بعضهم قد علم من نبوءة أن الإلهة عشتار كانت تعطف على أسرحدون. ولهذا فقد هرب قتلة الوالد إلى أرمينيا (أورارتو) وهكذا فقد اعترف بأسرحدون وأيده شعب آشور. وبعد أن أصبح أسرحدون الحاكم المنتصر حدث تطهير في الجيش وعوقب الذين اشتبهوا في العصيان وواجهوا المصير المحتوم.

لقد انتهز زعيم قبيلة بيت ياكين فرصة فترة الفوضى التي رافقت تولي أسرحدون السلطة فقام بتأكيد استقلاله وهاجم الحاكم الآشوري في بابل وحصره في المدينة، حيث قام بتولي الحكم في المملكة الجنوبية. وحالما سُوِّيت الأمور في آشور أمر أسرحدون بمهاجمة المتمردين في الولايات الآشورية إلى الشرق من نهر دجلة وقد هرب زعيم المتمردين إلى عيلام وهي الحلف القديم لبيت ياكين. حيث وجد أن سياسة عيلام قد تغيرت بعد أن تغير الملك هناك. وهكذا فقد اعتقل المتمرّد الهارب وأعدم في عيلام. ولقد قدم أخو الزعيم المقتول خضوعه وولاءه لأسرحدون وهكذا فقد عُيّن أميراً تابعاً على جميع الأراضي البحرية. وبعد سنتين استبدل الزعيم الكلداني بزعيم آخر موالٍ لآشور.

وفي أثناء ذلك واجه أسرحدون مشاكل في الغرب والشمال الغربي. فقد هاجمت أورارتو بعض الشعوب من عنصر عرقي جديد وكان هذا العنصر الجديد هو السكوتيون Scythians والمعروفون حسب المصادر المسمارية باسم أشكوزايا Ashguzaya وفي التوراة باسم الأشكناز وهناك بعض الشواهد التي تفيد أن أسرحدون قد قام بحلف مصاهرة مع أحد الأمراء السكوتيين ومن المحتمل أنه وتحت ضغط هؤلاء السكوتيين ظهرت مجموعات من السيميريين مرة ثانية في منطقة تابال وولاية هيلاكو Hilakku وفي عام ٦٧٩ ق.م قام الحكام الآشوريون بعمل ناجح ضد هؤلاء ولكن ضغطهم ازداد عنفاً وفي عام ٦٧٣ ق.م هددوا ولاية شوبريا وفي نهاية حكم أسرحدون خسرت الإمبراطورية الآشورية ولايتي هيلاكو وتابال.

أما الاضطرابات في الغرب فكانت متمركزة في صيدا، فقد تمرد ملكها وتحالف مع ساندواري Sanduari وكان هذا حاكماً لبعض المدن الواقعة على خليج أنطاكية. ولهذا تقدم أسرحدون واحتلّ وأعدم كلا الملكين ونهب صيدا وأسس قربها حصناً آشورياً وكإشارة محدّرة من اضطرابات أخرى كرّس الحصن بحضور اثنين وعشرين ملكاً من ملوك الأراضي الغربية. ولتأمين السلم في الجانب الصحراوي للولايات الغربية، حيث كان ملك العرب قد توفي منذ عهد قريب

ولتأمين صداقة القبائل في صحراء سيناء على طريق مصر أرسل أسرحدون جيشاً لتوطيد سلطة الزعيم الذي عيَّنه الآشوريون ملكاً وذلك لقاء دفع جزية ثقيلة.

أما في بابل فإن سياسة أسرحدون المصالحة لبابل أنتجت وضعاً مواتياً لآشور هناك. فقد كانت بابل التي خربها سنحاريب قد بدأت في إعادة ترميمها في نهاية عهده ولقد نُفذت أعمال إعادة البناء من قِبَل أسرحدون. وتصف إحدى النقوش إعادة بناء بابل بشكل فكاها كيف أن المشيئة الإلهية من الممكن تطويقها والمراوغة في تنفيذها، ففي أثناء نهب سنحاريب للمدينة كتب الإله مردوخ يقول إنه قد قرر أن يدوم خراب المدينة سبعين عاماً ولكن النقوش تدّعي أن الإله بعد أن تغلبت على سورة غضبه قلب اللوح رأساً على عقب وأمر بإعادة بناء المدينة في مدة أحد عشر عاماً ومعنى ذلك واضح بالنسبة للكتابة البابلية حسب العلامة المسمارية T تمثل واحداً وستين وهكذا إن الرقم المسماري المقابل للعدد تشك (تسعة) يدلّ على العدد سبعين ولكن إذا قُلب فإنه يصبح أحد عشر.

لقد عادت الإدارة النشيطة إلى بابل وكان هذا بفضل التربية الحسنة للمواطنين، فقد أرجع المنفيون بعد الفوضى الكلدانية إلى أملاكهم إذا استطاعوا إثبات ملكيتهم، وهكذا أصبح وضع آشور في بابل راسخاً ومؤمناً بحيث أنه وفي عام ٦٧٦ ق.م كان من الممكن استعمال بابل كقاعدة لحملة متجهة إلى الصحراء الملحية في بلاد فارس حيث أجبر عدد من الملوك الوطنيين على دفع الجزية، وقد حدثت غزوة قام بها العيلاميون في السنة التالية دون حدوث أي تمرّد مقابلها وكانت تلك الغزوة ذات أهمية مؤقتة.

أما في الشمال الشرقي، فيظهر أن حكم آشور للمانيين إلى الجنوب من بحيرة أورميا قد أشرف على الضعف كنتيجة لتسرّب العناصر السكوتية والسيميرية إلى تلك المنطقة. وهكذا خسرت آشور بعض معاقلها بالتحديد، وإن خسارة تلك الإمدادات من الخيول ربما فسّر سبب هجوم الآشوريين على هذه المنطقة في بلاد فارس فضلاً عن تزايد اهتمامها في شؤون ميديا، حيث قدّم أسرحدون مساعدته إلى عدد من الزعماء لكي يصدّوا حركات التمرد. ولقد كشفت الحفريات ونشرت

جزءاً من الألواح المسمارية التي عرفت حتى الآن (١٨ أنش طول ب ١٢ أنش عرض) وهذه تُقدّم نصوصاً عن سلسلة من المعاهدات مع الحكام الميديين. وكان الهدف من هذه المعاهدات هو تنظيم خلافة أسرحدون وربما أن أسرحدون قد تذكر الظروف التي سبقت استيلاءه على العرش فلذلك مال إلى اتباع هذا الموقف.

لقد كان أسرحدون قد أنجب ستة أولاد مات الطفل الأول في عمر مبكر ومن بين الآخرين هناك اثنان وهما شماش - شوم - أوكن Shamash-Shum-Ukin وآشور - بان - أبلي Ashur-Ban-Apli (آشور بانيبال) وهذان كانا لهما الحق في المطالبة بوراثنة العرش، وليس من الواضح من كان الأكبر ولا يمكن إغفال الحقيقة أنه ربما كانا توأمين. ففي اجتماع كبير حافل في نينوى عام ٦٧٢ ق.م قام أسرحدون بعد موافقة الآلهة وموافقة مجلس العائلة، بإعلان آشور بانيبال ولياً للعهد في دولة آشور وشماش - شوم - أوكن ولياً للعهد في بابل. ولقد طُلب من حكام الولايات والحكام المواليين لآشور أن يقسموا أيمان الموافقة على هذا الإجراء وأما الأمراء المواليون فقد طلب منهم الإقرار والمصادقة على القسم ضمن معاهدة طُلب منهم ما يلي:

عند وفاة أسرحدون ملك آشور سوف تتصبون آشور بانيبال ولي العهد على العرش الملكي وسوف يمارس شؤون الملكية في آشور فوقكم. وسوف تحافظون عليه في الأرياف والمدن وسوف تحاربون حتى الموت لأجله وسوف لا تظهرون العداوة له ولا أن تتصبوا أحد أخوته بدلاً منه. وفي حالة وفاة أسرحدون ملك آشور في حالة كون أولاده صغاراً قُصراً، ينبغي عليكم عندها مساعدة آشور بانيبال ولي العهد على اعتلاء عرش آشور وأن تساعدوا شماش - شوم - أوكن أخاه أن يصبح ولي العهد في مملكة بابل أو ملكها فيما بعد.

لقد نشرت تفاصيل وراثته العرش أثناء فترة الهدوء في الإمبراطورية بعد وقت قصير من قيام أسرحدون بتطويع واسع النطاق في السياسة الإمبراطورية. ففي عام ٦٧٥ ق.م قام تاركو Tarqu وهو من الأسرة الحبشية التي كانت تحكم مصر، بتحريض ملك صور لعمل بعض الدسائس ضد آشور ولهذا فقد قرر أسرحدون أن

يضرب رأس الفتنة، وعبر الحدود المصرية ولكنه لم يستطع التقدم لحصول عاصفة رملية. وفي عام ٦٧١ ق.م. نُظمت غزوة مرتبة على مصر وقد هُزمت جيوش طارقو في معركة فاصلة وحوصرت ممفيس ثم سقطت. وقد هرب طارقو بنفسه إلى طيبة أو إلى مكان ما إلى أقصى الجنوب. وهنا سارع أمراء مصر السفلى بما فيهم نخو أمير سايس إلى الاعتراف بسيادة أسرحدون. ولقد عُيّن موظفون آشوريون كممثلين لمصالح أسرحدون داخل حدود أراضي الحكام المحليين. وهكذا أعلن أسرحدون نفسه ملكاً لمصر السفلى والعليا وأثيوبيا. وقد كان هذا الإدعاء يفوق الحقيقة. وقد كرّرت الكذبة في نصب تذكاري أقيم في زنجيرلي Zenjirli أثناء عودة أسرحدون إلى آشور. ويظهر هذا النصب المنتصر الآشوري حاملاً حبلاً تمتد خلال شفتي شخصين راكعين أحدهما ملك صور والآخر يمثل طارقو. والحقيقة أن طارقو كان لا يزال حراً طليقاً وفي وضع يمكنه من ممارسة نفوذ لا بأس به وبعد أن رجع الجيش الآشوري من مصر عاد طارقو وأقنع بعض أمراء مصر السفلى برفض حكم الحاكم الجديد وأعاد احتلال ممفيس عندها عاد أسرحدون عام ٦٦٩ ق.م. للزحف إلى مصر لمعالجة الوضع ولكنه توفي وهو في طريقه إليها.

عند وفاة أسرحدون سارت الخطط التي نظمتها بشأن وراثة العرش على ما يرام وقد استلم كلا الأخوين عرشيهما ولم يكن هناك أي دليل بأن الإمبراطورية الآشورية سوف تقترب من نهايتها في نهاية حكم آشور بانيبال. نظراً لأنه ومن وجهة جغرافية كانت الإمبراطورية الآشورية الآن قد بلغت أقصى مداها. ومع ذلك كان هناك بعض العوامل التي من الممكن رؤيتها والتي يمكن أن تخدم في تفسير أسباب سقوط الإمبراطورية الآشورية المفاجئ. وكان أول هذه العوامل وأهمها هو الوضع في الحدود الشمالية. إذ بدا أن النظام الذي أرساه تغلات بيلاسر الثالث وسرجون الثاني وحافظ عليه سنحاريب قد سقط بشكل مؤسف. إذ وبوجود تلك القطعان من السكوتيين والسميريين والبرابرة الذين كانوا يطوفون فوق أراضي آسيا الصغرى وأراضي أورارتو، عندها توقف النشاط التجاري مع المناطق الشمالية وتوقف أحد المصادر الرئيسية للحديد وقُطِع. وقد بدأت القبائل الميدية التي كانت توصف في

حوليات تغلات بيلاسر الثالث وسرجون الثاني باسم الميديين الأقوياء والميديين السريعي الانتشار وذلك اعترافاً بامتدادهم الجغرافي، بدأت هذه القبائل الآن بالاستقرار والتكوّن بشكل وحدات قوية أصبحت أخيراً مملكة قادرة على مواجهة قوى آشور العسكرية على قدم المساواة. وبالإضافة إلى ذلك فإن اتحادهم قد حرّم آشور من مصدر آخر هام للمعادن والخيول وقطع طرق جلب التوابل والأحجار شبه الكريمة من الهند. ولقد احتوت بابل الآن التي هدأت أحوالها على إدارة مؤسسة على الدويلات - المدن القديمة في الشمال، هذه المملكة قد أصبح فيها الآن عنصر جديد وهو القبائل الكلدانية. وكانت هذه القبائل مسيطرة على جميع أراضي بابل فضلاً عن مناطق لابأس بها في الشمال سواء كان ذلك بشكل مستقل أو تحت سيادة آشور. ولقد تعلم الكلدانيون من الآشوريين فنون الحرب ومن البابليين الوطنيين فنون السلم.

وفي بداية حكم آشور بانيبال خطر على باله إنجاز الترتيبات للهجوم على طاروق في مصر ولكن نظراً لتلك الالتزامات الأخرى مثلاً إقامة معاهدة مع ملك صور الذي أظهر استعداداً للخضوع. وكذلك قضية تنصيب شماش - شوم - أكن ملكاً على بابل بالإضافة إلى حملة تأديبية على منطقة الكاشيين، لذلك ونتيجة لوجود هذه المعوقات استمر طاروق حاكماً على مصر دون منازع لمدة ثلاث سنوات، وفي عام ٦٦٧ ق.م زحف جيش آشوري قوي تدعمه فرق من سوريا وفينيقية وفلسطين وقبرص، زحف هؤلاء على مصر. ولقد هزم طاروق وانسحب إلى طيبة وعادت ممفيس خاضعة للنفوذ الآشوري، ولكن الأمراء الوطنيين قاموا بمحاولة للعصيان تأييداً لطاروق وكان (نخو) قائد هؤلاء ولكن القوى الآشورية اعتقلت زعماء العصيان وأخمدت المؤامرة ولكن نظراً لضرورة استخدام أمراء وطنيين في الإدارة العامة في بلاد مثل مصر مع وجود نظام بيروقراطي فعال خصوصاً وأن الأمراء المستخدمين كانوا يعاملون معاملة خاصة وبرفق بعد أن يؤخذوا إلى نينوى ويحملون الهدايا والهبات السخية والأحزام فلا شك أنهم سوف يدخلون في علاقات ودية ومعاهدات صداقة مع آشور عندما يعودون إلى بلادهم.

وبعد وفاة طارغو بُذِلَت محاولة أخرى لاستعادة مصر قام بها حكام الأسرة المصرية الجنوبية عام ٦٦٤ ق.م. وقد قام ابن أخيه تانيواتامون Tanuatamun بالزحف إلى منطقة النيل السفلي حتى ممفيس، حيث طرد أمراء الدلتا المواليين لآشور والذين قد أتوا لمقاومته. ولكن كان جواب آشور بانيبال سريعاً وحازماً فدخل جيش آشوري مصر مرة ثانية عام ٦٦٣ ق.م، فما كان من الأمراء المواليين لآشور إلا أن قدّموا فروض الطاعة بينما هرب تانيواتامون كما فعل عمه من قبله وبسرعة. ولقد تحرّك الجيش الآشوري الإمبراطوري جنوباً باتجاه طيبة العاصمة القديمة التي استولى عليها ونهبها ولقد سبّب هذا الحادث انطباعاً فظيعاً خلال مناطق البحر الأبيض المتوسط. وبعد حوالي نصف قرن أشار النبي ناحوم إلى مصر تلك المدينة التي سماها نو-أمون No – Amon:

«هل أنت أفضل من نو أمون التي كانت واقعة بين الأنهار وكانت المياه تجري حولها؟ وكانت بلاد الحبشة ومصر من مؤيديها وكانت قوتها لا حدود لها. ومع ذلك فقد هُزمت واستغرقت في الأسر ولقد قطعت أجساد أطفالها إرباً إرباً في نواحي الشوارع وقد رُبِط جميع رجالها العظام وقُيدوا بالسلاسل».

وفي أثناء فترة الاستيلاء على مصر يبدو أن آشور قد انشغلت بحركات عسكرية صغيرة في الشمال الغربي. فقد كان السيميريون الذين طردهم سرجون من سوريا يواجهون الآن ضغطاً من قبل السكوتيين في الشرق ومن بعض الغزاة الهندو-أوروبيين من تركيا، وكانوا قد هاجموا أراضي موشكو (أي بروجيا) وبدأوا الآن بالضغط على مملكة ليديا ربما كان بسبب نفس الضغط الجديد والمتجدد وذلك لأن حكام تابال وهيلاكو وهم حكام الأراضي التي انفصلت عن الولايات الآشورية أثناء حكم أسرحدون، لقد أسرعوا هذه الأقطار في وضع أنفسهم تحت حماية آشور بانيبال هذا وقد أرسل جايغيز Gyges ملك ليديا سفارة إلى آشور بانيبال يطلب صداقته بناءً على نصيحة تلقاها من إلهه في أحد أحلامه، ويطلب منه مساعدة عسكرية ضد السيميريين، ويبدو أن حلمه قد تحقق لأن جايغيز استطاع أن يلحق الهزيمة بالسيميريين وبعد انتهاء حملته أرسل بعض الغنائم

إلى نينوى (حوالي عام ٦٦٣ ق.م) ومع ذلك فقد أدت المصالح التجارية المشتركة بين ليديا ومصر وكلاهما من القوى المرموقة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، إلى تقديم الدعم لبساميتيكوس جايجيز Psammetichus وهو ابن نيكو في طرده للحامية الآشورية عام ٦٥٠ ق.م ونتيجة لذلك توقف دعم آشور لجايجيز في آسيا الصغرى وفي عام ٦٥٢ ق.م تعرض جايجيز لهجوم السيميريين. ولكن محاولتهم لغزو شمال سوريا قد أخفقت بسبب تدخل الجيوش الآشورية في منطقة كليزيا.

لقد شهدت سنة نهب طيبة ٦٦٣ ق.م، وفاة نيكو الذي نصب الآشوريون مكانه كأمر لسايس Sais ابنه بساميتيكوس الذي استحوذ على مركز مرموق وهو السيادة على أمراء الدلتا وذلك بعكس اتفاقية قديمة ذكرها هيرودوتوس. طبقاً لما قاله هيرودوتوس فقد تنبأت إحدى المتنبآت أن الانتقام سوف يحل ببساميتيكوس بشكل قدوم الرجال البرونزيين من البحر. ويفسر هيرودوتوس ذلك بأنهم القراصنة القادمين من اليونان وآسيا الصغرى الذين سوف ينزلون إلى البر على شواطئ مصر ويصف كيف أنه وفي ذلك الوقت قام بساميتيكوس بالصدقة مع أولئك القراصنة لإنجاز مصالحه. والحقيقة أن الرجال البرونزيين لم يكونوا سوى جنود مُرتزقة أتوا من السواحل شمال منطقة البحر الأبيض المتوسط وخصوصاً من ليديا وبمساعدة هؤلاء استطاع بساميتيكوس طرد الحامية الآشورية من مصر ما بين عام ٦٥٨-٦٥١ ق.م.

لا عجب أن لاتجد أية تفاصيل في حوليات آشور بانيبال حول الانسحاب الإيجاري لآشور من مصر، نظراً لعدم رغبة الآشوريين في تسجيل التفاصيل عن انكسارهم الذي لم يستطيعوا بعده الانتقام. ومن المؤكد أنه وبسبب الحوادث في بابل لم تستطع آشور أن تقوم بأي ردود كان من المنتظر أن تقوم بها.

لقد عادت التوترات التي حدثت في بابل التي خضعت لأسرحدون، إلى الظهور في حكم شماش - شوم - أوكين ولكن لقد اشتدت هذه التوترات بسبب الإجراءات التي أحدثها أسرحدون للحد من تلك التوترات. إذ الحقيقة أن بابل كانت تحت حكم شماش - شوم - أوكين، ولكن معظم الحكام الآشوريين كانوا

مسؤولين لدى أخيه آشور بانيبال ملك آشور. وتشير المراسلات إلى أن الموظفين الآشوريين وبقية الموظفين قد رفضوا التقيّد بأية أوامر لا تصدر خلال القنوات الرسمية والآتية من ملك آشور. وهكذا وفي زمن أسرحدون ذكر أحد التقارير أن أحد الأشخاص في بابل قد أمسك ببعض المتشردين ورفض تسليمهم دون وجود ممثل شخصي عن الملك أو وجود رسالة تحمل الختم الملكي. ولقد كان هذا الموقف سبباً في حدوث بعض الاحتكاك حين يهمل أحد الموظفين أوامر شماش - شوم - أوكين إذا لم يوافق عليها ملك آشور، وهو آشور بانيبال. وقد وجدت رسالة أرسلها شماش - شوم - أوكين إلى أخيه آشور بانيبال يذكر فيها أنه كان مُجبراً على تغيير وإبطال أوامره الخاصة ومع ذلك فقد استمر الحكم الثنائي هذا مدة اثني عشر عاماً على الأقل، وفي أثناء هذه المدة استطاع آشور بانيبال أن يشل حركات العدو الأساسي والحقيقي لبابل وهو عيلام.

لقد أصبحت مملكة عيلام القديمة الآن تحت ضغط القادمين الجدد من بلاد فارسالذين كانوا يتقاتلون بسرعة. أما المجموعة العرقية المعروفة فيما بعد باسم الفُرس فقد استقرت في القسم الشمالي الشرقي من المملكة، حيث حصلوا على استقلالهم الفعلي. بينما عمد حكام بعض الولايات الشرقية إلى الحكم الذاتي. أما منصب الملك فقد تعرّض لإزعاجات وتغيّرات فجائية كما كان الحال في بابل منذ عام ٧٣٤ ق.م. ولكن ليس من الواضح فيما إذا كان ذلك عبارة عن عرض أو علامة أو سبب من أسباب السقوط.

وبعد مصادمات صغرى نشبت الحرب ما بين عيلام وآشور عام ٦٥٥ ق.م استطاع الآشوريون التغلب على العدو واستولوا على العاصمتين التوأمتين ماداكتو Madaktu وسوزة Suza ونصبوا أحد أفراد العائلة الملكية الموالي لآشور ملكاً. ولقد بدأ حكام آشور بانيبال وجواسيسه في إرسال التقارير المحذرة له وهي أن شماش - شوم - أوكين كان يتآمر ضد آشور، وقد كان هذا التغير في الموقف عائداً إلى التطورات في عيلام، نظراً لأن تلك البلاد كانت تهديداً لأمن بابل، إلا أنه كان هناك مصالح واحدة ما بين إدارة آشور بانيبال وإدارة شماش - شوم -

أوكين، ولكن ظهر أن هذا العامل قد اختفى الآن، وفوق ذلك ظهر أن آشور بانيبال قد ارتكب غلطة في اختياره أميراً معيناً، للعرش العيلامي، ولقد كتب شماش - شوم - أوكين رسالة إلى أخيه يعلق فيها على تعيين هذا الأمير فقال: «إذا كنتُ سوف أفصح عن رأيي فأقول إنني أخشى هذا الأمير اومان - اغاش Ummani gash ولي العهد. فهو خطر». ويبدو أن تقييم شماش - شوم - أوكين لهذا الرجل كان له ما يبرره، فقد اتّبع سياسة التحالف مع القبائل الكلدانية، ونظراً لأن تلك القبائل كانت في ذلك الوقت قد حازت على دعم كافٍ من بورسيبا وبابل لذلك فقد سبق شماش - شوم - أوكين نفسه إلى مواطن الدسائس، ولقد رحب بساميتيكوس في مصر بالتحالف وكان هنا منشغلاً في طرد الحاميات الآشورية من بلاده وقد وافق أعراب الصحراء على هذا أيضاً. ولقد نشب النزاع الحقيقي عام ٦٥٢ ق.م عندما تحرّك جيش عيلامي ضد شمال بابل بينما هاجم شماش - شوم - أوكين المدن الكبرى التي كانت تحتلها الحاميات الآشورية، ولكن أخيراً انكسر الجيش العيلامي وحدثت ثورة داخلية تسببت في تغيير آخر للملك وجمّدت نشاط القوى العيلامية لمدة عام أثناء إعادة التنظيم. وهكذا فقد انتهز الآشوريون الفرصة وأمسكوا بزمام المبادرة. وطرّدوا القوى الكلدانية المنظمة من جنوب بابل وحاصروا بورسيبا وبابل وبهذا قطعوا المواصلات ما بين الشركاء الرئيسيين في التحالف. وفي عام ٦٥٠ ق.م فشلت محاولة للعرب في كسر الحصار عن بابل كما فشلت غارة على الحدود الشرقية لفلسطين. وفي أثناء ذلك استمرت الأحوال في عيلام بالتدهور وفي عام ٦٤٩ ق.م نشبت الحرب رسمياً. فقد ظهر ثلاثة مدّعين للعرش قد طلبوا مساعدة آشور ودعمها ولكن الجماعة المناوئة لآشور سيطرت على الموقف وعيّنت الشخص الذي اختارته. ونتيجة للانقسامات الداخلية في عيلام لم يحظ شماش - شوم - أوكين بأي دعم عسكري فقد ظل مرابطاً في بابل المحاصرة ودافع عنها حتى أجبرته المجاعة بالتسليم عام ٦٤٨ ق.م حين أصبحت الأحوال مخيفة لدرجة فظيعة بحيث التجأ المدافعون إلى أكل لحوم البشر. ولكي يُجنب نفسه وجسده التشويه، أُلّف شماش - شوم - أوكين نفسه بإلقاء جسمه بين ألسنة اللهب العظيمة وقد نُهب قصر الملك المتوفى وقضي على جميع

الزعماء المتمردين الذين بقوا أحياء. وقطعت أجسادهم وأصبحت طعاماً للكلاب والخنازير والذئاب والطيور الجارحة وطيور السماء وأسماك البحر. ولقد احتل آشور بانيبال عرش بابل لمدة سنة واحدة. أما بالنسبة لبقية حكمه فقد حكم من خلال نائب الملك الذي كان يدعى كندالانو Kandalanu ولكن يقال إن اسم كاندالانو هو الاسم الذي كان يُعرف به آشور بانيبال في بابل.

لقد تدخلت آشور الآن مرة ثانية في قضية وراثة العرش في عيلام، فقد زحف جيش آشور إلى سوزة Susa عام ٦٤٨ ق.م ولكن لم تحدث أية تسوية دائمة في البلاد، بل استطاع نابو - بيل - شوماتي وهو حفيد ميروداش - بالادان أن يستخدم عيلام كقاعدة لنشاطات القبائل الكلدانية ضد بابل. وفيما بين سنة ٦٤٢ وسنة ٦٣٩ ق.م زحف الجيش الآشوري مُخترقاً عيلام ومخرباً جميع المدن ثم استولى على سوزة ونهبها ونقل جميع آلهتها وتجهيزات المعابد إلى آشور وقد دُست المقدسات وشوّهت قبور ملوك العيلاميين بحيث تلحقهم اللعنة بعد موتهم. وأصبحت أشباحهم تقاسي من الفزع والقلق والعطش نظراً لافتقارهم للتقديرات المعتادة من الطعام وإراقة دماء الأضاحي. ولقد قبض على عدد كبير من الموظفين الكبار وجميع أفراد العائلة المالكة من جميع فروعها وأخذوا أسرى إلى آشور بينما ألحقت بعض الوحدات المقاتلة المتخصصة بالجيش الآشوري. وقد أخذ كثير من عامة الشعب أيضاً إلى آشور بالإضافة إلى قطعان المواشي والخيول. ولقد أرجع تمثال الآلهة نانا آلهة إيريش الذي كانت عيلام قد أخذته قبل ألف وخمسمائة عام، أرجع هذا التمثال إلى وطنه الأصلي. ولا شك أن هذا العمل قد أكد لآشور بانيبال الدعم الفعلي لإدارة المعبد في إيريش التي أصبحت منذ هذا الوقت عاصمة منطقة بابل الجنوبية.

ولقد نجا ملك عيلام أومان - الداش Umman-Aldash من الأسر بالالتجاء إلى الجبال. ولدى انسحاب الآشوريين عاد إلى (ماداكوتو)، حيث أصبحت (سوزة) بلداً فقراً خالياً من السكان وعبارة عن كومة من الأنقاض ولم يعد ملك عيلام في وضع يستطيع به حماية نابو - بيل - شوماتي الزعيم الكلداني، وعندما طلب آشور بانيبال تسليم ذلك الأمير أمر نابو - بيل - شوماتي حامل أسلحته بقتله. قام أومان -

الداش بإرسال جثته التي حفظها من التلف بوضع الملح عليها إلى آشور بانيبال الذي شعر بأنه لم يستطع إنزال العقاب بهذا الأمير وهو حي، فانتقم من روح عدوه وذلك برفض دفن جسم ذلك الأمير.

أما أو مان - الداش نفسه فقد وقع أخيراً في قبضة الآشوريين وهناك نقش نافر موجود في المتحف البريطاني يظهر ذلك الحاكم الأسير منقولاً في عربة يُسَلَّم إلى آشور بانيبال. أما العنصر الثاني المتورط في العصيان البابلي فهم العرب الذين لم يكونوا ليؤلفوا أية مشكلة خطيرة، وفي سلسلة الأعمال التي حدثت ما بين عام ٦٤١ و٦٣٨ ق.م استطاع أحد الجيوش الآشورية إنزال الهزيمة بالعرب وقبائلهم وأسر زعمائهم وربط اثنين منهم في أوكار الكلاب عند أبواب نينوى العظيمة.

لا تمتد حوليات آشور بانيبال الذي حكم حتى عام ٦٢٦ ق.م إلى ما وراء عام ٦٣٩ ق.م وبالنسبة للمعلومات حول الحوادث التي جرت خلال الثلاثة عشر عاماً الباقية من حكم آشور بانيبال علينا الاعتماد على بعض التلميحات التي وردت في المراسلات الرسمية وعلى الوثائق التجارية والصلوات والأدعية الموجهة للآلهة، وهناك إحدى الأناشيد التي تشير إلى الحالة المؤلمة:

«على وجه الأرض هناك الاختلافات وفي القصر هناك النزاع، وهذا النزاع وهذه الحالة المؤلمة تلازمي ولا تبرح عن جانبي، والعصيان والمؤامرات الشريرة تحاك باستمرار ضدي».

إن هذه الأناشيد تشير بالطبع إلى الخصومات حول وراثة العرش، وبالتأكيد وبعد وفاة آشور بانيبال عام ٦٢٦ ق.م حدثت محاولة لاغتصاب العرش وكان الوريث المختار آشور - إيتلو - إيلي Ashur-Etillu-Ili مضطراً لشق طريقه إلى العرش، فالتسلسل الزمني للوقائع ما بين وفاة آشور بانيبال وسقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م يتضمن صعوبات جمّة.

لقد ضخمت الشواهد ولكنها تعقدت بنفس الوقت وذلك بعد قراءة نقش أمرت بإقامته والده آخر ملك من ملوك الأسرة الكلدانية والتي كانت كبيرة الكهنة في

حرّان ولقد عاشت هذه السيدة الطيبة مئة عام وأربعة أعوام. ويقول النقش ((إنها عاشت اعتباراً من السنة العشرين من حكم آشور بانيبال ملك آشور (عندما ولدت) حتى السنة الثانية والأربعين لحكمه وحتى السنة الثالثة لحكم ولده آشور - إيتلو - إيلي وحتى السنة الحادية والعشرين من حكم نابو بولاسر، وحتى السنة الثالثة والأربعين من حكم نبوخذ ريزر وحتى السنة الثانية من حكم الملك أميل مردوخ وحتى السنة الرابعة من حكم نيري غايسار بحيث يكون ذلك خلال خمسة وتسعين عاماً.))

وعاشت حتى بداية حكم ابنها. ولما كان هذا التاريخ يقدم لنا الزمن الذي انتهى به حكم آشور بانيبال عام ٦٢٦ أو عام ٦٢٧ ق.م، ونظراً لأنه من المعلوم من مصدر آخر أن نابوبولاسر استلم المملكة في بابل في شهر تشرين الثاني عام ٦٢٦ ق.م، فإن السنوات الثلاث التي قدّرت لحكم آشور - إيتلو - إيلي في بابل تبدو بأنها سوف تقدم لنا مشكلة، فإذا لم نرغب في اعتبار هذا التناقض مجرد نسيان في الذاكرة بالنسبة لشخص قد تقدّم به العمر، فإن هذا التناقض ربما يتمثل فترة من الزمن ادعى فيها كل من آشور - إيتلو - إيلي ونابو بولاسر الملك في بابل. وبالتأكيد فإن آشور - إيتلو - إيلي قد مارس السيطرة الفعلية في بابل في برهة من زمن حكمه القصير، وذلك نظراً لأن أحد النقوش يظهر أنه استطاع تقديم الحماية إلى بعض شيوخ قبيلة كلدانية في بيت - داكوري بينما تعهد بترميم أحد المعابد في ديلبات Dilbat وهي واقعة على بعد خمسة عشر ميلاً من جنوب بابل، ومن المؤكد أيضاً أن القائد الكلداني نابو بولاسر اتخذ لقب ملك بابل في أواخر عام ٦٢٦ ق.م، وإن مصداقية حكمه وسيطرته تظهر من أن الوثائق التجارية التي وجدت في بابل وإيرلين وأور مؤرخة ابتداءً من حكمه. وإن تفسير هذه الصعوبة هو أن سيطرة آشور على بعض أجزاء بابل لم تكن قد توقفت كلياً عندما تسلّم نابو بولاسر مقاليد الملكية، وتؤكد رواية بيروسوس (وهو كاهن بابلي عاش في القرن الثالث ق.م وقد كتب باللغة اليونانية عن التاريخ البابلي) وهو يؤكد ذلك عند التكلم عن نابو بولاسر بصفته متمرداً ضد سن - شار - إيشكون Sin-Shar-

Ishkun. وهذا يوضح أن آشور كانت لا تزال تمارس بعض السلطة في بابل عند صعود الأخير إلى العرش ويعتبر هذا عادة وريث آشور - إيتلو - إيلي، الذي حكم مدة سبع سنوات على الأقل وهذا ما يظهر من تواريخ العقود. وتقترح قائمة الملوك التي اكتشفت حديثاً أن حكم آشور - إيتلو - إيلي وسن - شار - إيشكون قد مضى جزئياً في الماضي مما يدل أن كلاً منهما قد حكم جزءاً من الإمبراطورية التي كانت تحكم سابقاً كوحدة من قبيل آشور بانيبال. وربما أشار هذا إلى وجود بعض التوترات التي تقترب من الحرب الأهلية داخل آشور نفسها. وإنه وخلال حكم سن - شار - إيشكون اشترك نابو بولاسر في حلف عمل أخيراً على إسقاط آشور.

إن الشعب الذي تحالف معه نابو بولاسر هو الشعب الميدي. ولقد قابلنا هؤلاء لآخر مرة أثناء حكم أسرحدون عندما كانوا يتألفون من عدد كبير من القبائل المتحالفة ولكن المستقلة وربما في بداية حكم آشور بانيبال قامت هذه القبائل بتشكيل مملكة واحدة زعيمها هافاك شاترا Havak-Shatra والمعروف في بابل باسم أرمأكيشتا وبالنسبة لهرودوتس عرف باسم سواكسارس Syaxares. وليس من المؤكد معرفة التاريخ الذي حصل هذا الرجل على استقلال الأمة الميديّة عن آشور. ولكن هناك قصة رواها ديودوروس سيكولوس (وهو رجل من صقلية كان معاصراً ليوليوس قيصر وكتب تاريخ العالم) تقول إن نابوبولاسر (بيليز) قد شجع سواكسارس بأن يعادي آشور ووعدته بالنجاح وهذا يوحي أن ذلك لم يحدث إلا بعد موت آشور بانيبال. وعلى كل حال فإن كلا المصادر اليونانية والمسمارية تؤكد أن نابو بولاسر وسباكزاريس كانا كلاهما مشغولين في الأعمال الحربية بعد عام ٦٢١ ق.م بوقت قصير.

لم تكن آشور دون حلفاء بشكل كلي، فهناك المصريون الذين مع أنهم لم يهتموا بالتوسّعات الأرضية إلا أنهم اهتموا بشكل كبير بأي تطوّر يطال منطقة البحر الأبيض المتوسط تجارياً أو يطال أمن مصر. ولهذا فلا شك أن مصر لم ترغب في رؤية سوريا وشمال منطقة ما بين النهرين تحت التصرف الكلي للسيطرة الميديّة. وفوق ذلك فقد بقي ذلك التهديد الذي كانت تمثله القطعان المتجولة من البشر

شمالاً وهم السيميريون والسكوتيون والقبائل من البدو الرُّحْل الآخرين من أصل هندوأوروبي وقد ظهرت آشور مع ما كانت تتمتع به من الهيبة العسكرية المتوارثة منذ عدة قرون، ظهرت بأنها الحامي الوحيد ضد ذلك التيار من البرابرة. ويطلق على هؤلاء اسم السكوتين ولكن الحقيقة أن عنصر السكوتين لم يكن سوى جزء وإذا حكمتا حسب المصطلحات الآشورية، فقد كانوا جزءاً هاماً ومسؤولاً.

وبالنسبة للولايات الآشورية والدويلات الموالية وبينهم مملكة يهوذا، فقد أظهروا العداء تجاه آشور. أما الآخرون وخاصة جزء من المانيين فقد قدموا دعماً حقيقياً لملكهم. وحتى في بابل كان هناك في مدنها بعض المواليين لآشور حتى زمن سقوط نينوى نهائياً. ولقد ظهر هذا بصفة خاصة في أيريش حيث يُظن أنه قد حدث عصيان فيها إيريش تأييداً لآشور وذلك حوالي عام ٦١٤ ق.م.

ليس هناك من تفاصيل من المصادر المسمارية حول المراحل الأولى من أنشطة نابوبولاسر. ولكن من الواضح أنه وفي عام ٦١٧ ق.م كان هذا الملك قد نظَّف بابل من الحاميات الآشورية جنوب المنطقة حول ذلك العنق الذي يكاد دجلة والفرات يلتقيان بعضهما بعضاً ولقد زحف نابو بولاسر الآن إلى أعالي الفرات متجهاً نحو المقاطعات الآرامية. وهي مقاطعة سوحو Suhu وهندانو Hindanu ما بين حيت Hit ومصب الخابور اللتان كانتا جزءاً من الإمبراطورية الآشورية لمدة تزيد عن قرنين ونصف ولقد صادف نابو بولاسر بعض النجاح في هذه المنطقة إذ خضع الآراميون بسرعة وباءت المحاولات الأولية المناهضة لآشور بالفشل. وقد كانت الاستراتيجية الأصلية المخططة تشمل إجراء تمرُّد عام ضد آشور في الولايات الشرقية بتزامن مع هجوم على نينوى من الشرق والغرب من قبل الميديين والكلدانيين، ومع ذلك فإن اقتراب ذلك الجيش الموحد من الآشوريين والمصريين أجبر نابو بولاسر على الانسحاب إلى بابل، ولهذا فقد تحركت القوى المتحدة لآشور ومصر شرقاً إلى ولاية أرابخا، وينبغي أن نتذكر أن تلك الولاية التي أسسها تغلات بيلاسر الثالث واستخدمها هو وحلفاؤه كوسيلة ناجعة للهجوم على بابل المدينة دون اللجوء إلى المنطقة الواقعة عند العنق المتشكل من تقارب دجلة والفرات. وفي إحدى

النقاط إلى الجنوب من الزاب الأسفل أجبرت الجيوش الآشورية للتوقف وذلك بفعل الجيش الذي جلبه نابو بولاسر.

ولقد حدث هجوم جريء على آشور وهي العاصمة القديمة في أوائل السنة التالية (٦١٥ ق.م) ولكن هذا الهجوم كاد أن يسبب كارثة لجيش نابو بولاسر الذي أجبر على الهرب والالتجاء إلى قلعة إحدى المدن التي كانت ولا تزال تدعى تكريت ولم يكن الآشوريون راغبين أن يستفيدوا من تلك الفرصة السانحة بل انسحبوا. إذ إن جهاز مخابراتهم من المظنون أنه قدّم لهم معلومات عن هجوم ميدي وشيك. وقد حصل هذا الهجوم في السنة التالية وعلى مدينة في ولاية أرابخا، وكان غرض هذا الهجوم إنشاء قاعدة للتقدم ومنها تهاجم نينوى نفسها. ولقد حصل هجوم ميدي على مدن آشور عام ٦١٤ ق.م ومع أن نينوى كانت ذات قوة كافية لردّ الهجوم إلا أن كلاً من تارييسو Taribsu وأشور سقطتا وبعد ذلك هدمت مدينة آشور عن بكرة أبيها. وبعد ذلك وصل نابوبولاسر إلى المدينة المنهوبة على رأس جيشه. ولقد اختتم العمل المشترك ما بين الميديين والكلدانيين بمعاهدة رسمية ما بين نابوبولاسر وسواكسارس أقرّها وصدقها حسب روايات ظهرت فيما بعد حلف مصاهرة وزواج.

وبعد أن خسرت آشور ولاية أرابخا، حاولت القوى الإمبراطورية إجراء هجوم معاكس على بابل أسفل الفرات. ولقد تمرّدت قبائل السوحو Suhu الذين كانوا قد أعلنوا خضوعهم لنابو بولاسر عام ٦١٥ ق.م وبينما كان نابوبولاسر منشغلاً في عمليات الحصار في أنا Anah إذا بجيش آشوري يظهر مما أجبر نابوبولاسر على الانسحاب، ومن الغريب أن الميديين الذين أحرزوا انتصارات باهرة ضد آشور في السنة السابقة أصبحوا الآن وخلال عام ٦١٣ ق.م مكتوف في الأيدي ولم يتحركوا، بحيث استطاعت آشور أن تنشر جيشاً على مساحة قصيرة من أراضي الميديين ولقد قيل إنه من الممكن أن تكون آشور قد دبرت قيام بعض المفاوضات مع السكوتيين للقيام بهجوم من الشمال ضد الميديين. أما السكوتيون فلم تكن مصالحهم تتضارب مع مصالح الآشوريين مباشرة وكان لديهم ميل للاحتفاظ بعلاقات ودّية مع تلك القوة، تلك العلاقات التي كانت تعود إلى ظهورهم لأول مرة في الشمال زمن

أسرحدون فقد كوّنوا حليفاً معتبراً لآشور ذا قوة مرموقة. وتقول القصص التي يرويها الكتاب اليونان فيما بعد إن الميديين كانوا في أحد الأوقات مهددين بشكل خطير من قبل السكوتيين ولكن أخيراً أقنعوا قوادهم بالاتفاق معهم وجعل أهدافهم مشتركة وبالنسبة للمصادر البابلية لا يُشار للبداو الرُّحل باسم السكوتيين بل باسم الأمانامندا وهذا الاسم يقترب معناه من اسم القطعان ولاشك أن الأمانامندا كانوا يحتوون بعض العناصر السكوتية مع مكونات عرقية أخرى ومن الممكن أنه وحتى استطاع سواكسارس أن يقابل ويتغلب على أكثر القواد نفوذاً في هذا الائتلاف من القبائل، كان هناك بعض الشك في الجانب الذي ينبغي عليه أن ينضم إليه. وفي عام ٦١٢ ق.م قام هناك اتحاد ما بين نابويولاسر والأمانامندا وسواكسارس الذين زحفوا جميعاً ضد نينوى. وبعد حصار دام ثلاثة أشهر سقطت المدينة وتوفي آخر ملك من ملوكها وهو سن - شار - إيشكون وحسب بعض الروايات اليونانية توفي نتيجة تعرّضه للحريق الذي أصابها ولقد نهبت المدينة وسلبت وأصبح ما بقي من سكانها على قيد الحياة عبيداً. وتقول بعض الروايات اليونانية وفي كتاب ناحوم العبري أن سقوط تلك المدينة القوية التحصين أصبح ممكناً عندما فاضت مياه نهر دجلة التي جرفت أمامها قسماً من وسائل الدفاع.

لقد هُزمت تلك العاصمة، ولكن لم تزل مملكة آشور قائمة اسمياً، إذ إن أولئك الجنود الآشوريين الذين استطاعوا الهرب من نينوى، قد توجهوا مسافة مئة ميل غرباً إلى حرّان، حيث نُصّب آشور أوباليت وهو عضو صغير من أعضاء الأسرة المالكة، نُصّب ملكاً وبدأ باستدعاء حلفائه المصريين.